ليته معنا

طريق أسيوط.. الواحات الخارجة.. المسافة مائتان وستة وعشرون كيلو مترًا.. ما زلنا في بداية الرحلة.. الأتوبيس السريع ينهب الطريق الأسود.. ترامت على جانبيه مساحات شاسعة من الرمال والتلال.. المسافرون للمرة الأولى تتناقل أبصارهم في لهفة بين أجزاء الطبيعة الصحراوية.. تتراءى لهم ثلاثة ألوان لا غير.. سواد الطريق.. وصفرة الرمال.. وزرقة السماء.. تتسابق أعمدة التليفونات مع عقارب الساعة.. والأتوبيس يهتز ويتماوج، ومع حركته تدور رؤوس الركاب.. وكان الكمساري قد استرخى على أحد المقاعد.. وراح في سبات عميق.. فالمسافة طويلة.. والرحلة شاقة.. كما أن مهمته قد انتهت بعد دقائق من قيام الأتوبيس.. تاركًا الركاب يتبادلون أحاديث متباينة.. ممزقة موضوعًا وأسلوبًا.. ويحل الصمت إلا من صوت المحرك.. وسرعان ما يمل الركاب المشهد داخل العربة وخارجها.. وما يلبث أن يداعب جفونهم نوم قلق.. متقطع.. داخل الأتوبيس.. بين تلك الصحراء المقبضة والجو الحار الخانق.. انطلقت صرخة طفل.. بكسل.. فتحت أمه عينيها، وجعلت تربت عليه كي يهدأ.. ولكن أبى الطفل واستمر في صياحه، فانثنت عليه في حنان.. وأخرجت ثديها من تحت طرحتها في حرص، وألقمته حلمتها.. وأيضًا رفض الطفل.. وأبعد رأسه مواصلًا صراخه، وقدماه تضربان الهواء.. احمرّ وجه الأم، بينما تنقلت حدقتاها هنا وهناك.. وخاصة حينما تطايرت إلى سمعها تعبيرات الضيق والتأفف..

ليته يكف رحمة به وبها.. جعلت تهمس إليه بصوتها الدافئ.. لكن الطفل لم ينصت لحديث أمه.. وظل يصرخ.. اشتدت آلام الأم ولوعتها.. رنت إلى طفلها كأنما تناجيه أو تستحلفه أن يهدأ.. جعلت تداعبه فتوقفه مرة وتلوحه أخرى.. وترشوه بقبلة بلا جدوى..

صحا كل مَن في العربة.. واتجهت أنظارهم نحو الطفل وأمه، وارتسمت على وجوههم تعبيرات الغيظ.. انتظروا فترة لعله يسكت فيعاودوا نوبات نومهم.. ولم تخفت صيحات الطفل!.. واستمر وقد بحَّ صوته.. حلّ القلق محل الغيظ.. ولاح واضحًا في وجوه النساء.. لم تطق إحداهن الصبر؛ فقامت وتناولت الطفل، وجعلت تهدهده وتداعبه.. كيف يستجيب وقبلًا أبى مداعبات أمه؟

علت صرخاته واشتدت.. أيضًا، تأثر الرجال وتفوهوا بتعبيرات الرثاء.. كما صدرت منهم حركات تنم عن التوتر.. تتلاقى نظراتهم، ولا يعلمون ما يصنعون.. ليس البكاء طبيعيًّا.. صاح أحدهم قائلًا:

- لا بد أنه يشكو ألمًا في أمعائه أو معدته..

سأله آخر في ضيق:

- كيف عرفت.. أأنت طبيب؟!

- كلا.. ألا ترى كيف يتلوى؟

في حرقة رددت الأم في نفسها:

- لقد أحضرت كل لوازمه.. إلا دواء المغص.. ما كنت أعلم أن يحدث هذا.. لو.. لو أحضرت الدواء!

اندفعت تستعيد صغيرها من الراكبة التي كلَّت ولم تفلح في استعادة سكينته.. وترددت هتافات الركاب:

- ألا يوجد بالعربة دواء للمغص؟!

- ولو ملعقة صغيرة!

- لعنة الله على الصحراء!

وأخيرًا، تذكر السائق، فقال صائحًا:

- معي دواء.. معي دواء..

التفتوا جميعًا ناحيته.. والتفتت إليه الأم والأمل يتلألأ في عينيها عندما استرسل السائق:

- لكن، لا أدري إن كان للمغص أو للـ..

قفز أحد (الأفندية) إلى مقدمة العربة.. بينما أضاف السائق:

- قد اشتريته لولدي.. لعله يفيد هذا الطفل المسكين!!

وقف الأفندي يتفرس في علبة الدواء.. والأنظار كلها معلقة بشفتيه.. وأخيرًا، نطق بين هزات رأسه:

- للأسف.. إنه ليس للمغص..

انتفض قلب الأم.. وشعرت بشيء يضغط عنقها.. زاغت عيناها حين رأت سِحنة الطفل، وقد امتقع لونها.. التف جميع الركاب حول الطفل وأمه.. بأجسامهم وأنفاسهم ورعشاتهم ونبضات قلوبهم وكل جوارحهم.. كأنهم يحولون بين الطفل وشبح الموت.. وقد نسوا عناء الرحلة.. بل نسوا كل شيء إلا بكاء الطفل المتحشرج..

وصلنا منطقة النقب.. والنقب ارتفاع هائل متعرج.. مكمن الخطورة في الطريق الأسود.. الأتوبيس يقاوم.. ولأول مرة - أيضًا - ينسى الركاب أنفسهم والخطر يداهمهم.. فيتمتمون بالدعاء والتضرع إلى الله أن ينتشل الطفل من محنته فيرحم أمه.. ويرحم أعصابهم التي تحترق..

أيضًا، امتقع وجه الأم، وتغيرت ملامحه.. وأصبح يحاكي وجوه الموتى.. ندَّت منها صرخة قائلة:

- هل يبقى الكثير؟

أجاب أحد الركاب والأمل يبرق من بين نبراته:

- مضى ثلاث ساعات.. لم يبق غير ساعة واحدة..

- ساعة بأكملها.. ستون دقيقة! سيصرخ الطفل ساعة أخرى.. يا للهول!

- لعل الفرج قريب فيهدأ الطفل!

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

وانتزعت الأم من بين أسنانها هاتين الكلمتين:

- سيموت ولدي..

ثم تبدلت ملامحها واستطردت، بينما تنظر إلى الركاب معاتبة:

- طفلي يموت..

هدأ صوتها قليلًا.. وقالت في يأس:

- لو كان أبوه معنا!..

وأخذت عيناها تنتقل بين الملتفين حولها، والدموع تترقرق في مآقيها وتبلل وجهها.. وقد انتفشت خصلات شعرها.. كما نسيت ثديها الأيسر متدليًا منتفخًا.. يقطر اللبن.. كأنها دماء تتدفق من أعماق قلبها، واسترسلت:

- سيبكي الطفل ساعة أخرى.. كيف؟!

ثم ارتعشت كل أعضائها، وارتخت أطرافها.. وقبل أن تنكفئ.. اختطف أحدهم الطفل قبل أن يسقط.. وارتمت الأم فاقدة الوعي..

تعقد الأمر.. الطفل وأمه!..

- نشادر.. كولونيا للأم المسكينة..

أخرجت إحداهن قنّينة من حقيبة يدها.. وتناولت منها بإصبعها ومسحت أمام طاقتي أنفها.. ولم تفق الأم.. صاح أحدهم في ثورة:

- أيها السائق المعتوه.. لِمَ لا تسرع.. كأن العجلات لا تتحرك!

وأضاف آخر:

- أسرع أيها السائق.. ألست إنسانًا!

قال السائق في حزن شديد:

- السرعة على الرابع يا جماعة!..

ثم أضاف في لوعة:

- لو تنقلب عربتي طائرة!..

أُحبطت كل محاولات إنقاذ الأم من إغماءتها.. كما أحبطت قبلًا في إعادة السكون إلى ابنها.. وانحصرت كل

الانفعالات تبعًا لصوت (الموتور).. وفحيح الهواء الساخن.. والعربة تسابق الرياح.. علت دقات القلوب مع أنفاس الطفل اللاهثة.. وصوته المبحوح.. انهمرت الدموع حين صاح السائق والعَبرات تنزلق من عينيه:

- لم يبق إلا بضعة كيلو مترات.. اقتربنا من محطة المحاريق..

وأخذ السائق في وصفه لكل ما تقع عليه عيناه كأنما أصابه مس.. وكان عليه أن يقف في محطة المحاريق للتفتيش كما تقتضي الأوامر..

كان شرطي المرور واقفًا بجانب الطريق حين رأى الأتوبيس على بعد.. ولكن علته الدهشة.. كما أصاب الباعة المنتظرين الذهولُ.. وذلك حين رأوا الأتوبيس يفر من أمامهم.. تاركًا خلفه جبلًا من الأتربة.. أخذ الشرطي يرغي ويزبد.. ويهدد بأنه سيقلب الدنيا على رأس السائق المجنون.. بل على رأس الكمساري الذي لم يأمره بالوقوف.. بل على رأسيهما الاثنين.. فلا ريب أنهما اتفقا على تلك الفعلة الحمقاء.

أخيرًا، وقف الأتوبيس في محطة الخارجة.. بعد أن التهبت الحلوق، وبلغت القلوب الحناجر.. وكان من بين المنتظرين رجل.. جعل يتفحص وجوه النازلين من الركاب دون أن يعي ما تنطقه ملامحهم.. جاء إلى سمعه صوت صراخ غريب.. لم يلفت انتباهه.. اتسعت عيناه حينما رآهم يحملون جسدًا.. دق قلبه بعنف.. جرى يشق طريقه بين الناس.. اصطدمت عيناه بوجه زوجته

المحمولة.. انكفأ عليها باكيًا.. خبط أحدهم على كتفه، وسلمه ابنه حين صاح السائق:

- ماذا تنتظرون أيها الحمقى.. اطلبوا الإسعاف على الفور.

لم تمض دقائق وجاءت عربة الإسعاف تصرخ وتولول.. وحمل رجالها الأم وابنها.. مشى الزوج بين الناس تلاحقه عبارات الإشفاق.. صعد عربة الإسعاف بين ذهوله، وجلس بجانب زوجته المسجاة.. جعل يتأمل ولده الذي يراه لأول مرة، ولسان حاله يقول:

- أهكذا يكون لقاؤنا الأول! ليته ما كان.. كنت.. كنت أعد اللحظات..

ألقى نظرة على زوجته، واستطرد يقول بعينيه:

- لا بد أنك أنهكتَ أمك.. وسببت لها الضيق والحرج.. وهأنت ذا تبكي حزنًا عليها.. وقد بُحّ صوتك من شدة البكاء..

ثم أردف في بلاهة:

- أوَ تنظر إلي.. ألا تعرفني؟! لو تنظر في المرآة لعرفت من أنا..

وقفت العربة أمام باب المستشفى.. نُقلت الأم وطفلها إلى حجرة الطبيب.. تبعهم الزوج، وقد انحنى كعجوز طحنته السنون.. نظر الطبيب إلى الزوجة.. ثم اتجه إلى الطفل، وانهمك في إسعافه.. وبعد لحظات، سكت الطفل.. ثم وقف الطبيب أمام جسد الزوجة.. التقت عينا الزوج والطبيب الذي تساءل:

- أأنت زوجها؟

أجاب الزوج في وجل:

- نعم.. ووالد الطفل..

- صرخ الطبيب فجأة قائلًا:

- ولِمَ انتظرت كل هذا الوقت؟ كاد الطفل يفارق الحياة..

استراح قلب الزوج قليلًا.. وبعد برهة، لعب لسانه في فمه، ثم قال في تردد:

- و.. والأم يا دكتور؟

أشاح الطبيب بوجهه ليخفي عَبْرة، ثم قال بصوت مختنق:

- للأسف.. ماتت منذ أكثر من ساعة..

عقد الجزع لسان الزوج.. ثم هتف غير مصدق:

- ماتت!!

ثم صرخ في جنون:

- مستحيل يا دكتور.. مستحيل!!

وانفجر الرجل يبكي.. وأطلق الطبيب لدموعه العنان.. ولم يدم المشهد طويلًا حين ارتفع صوت الطفل.. عندئذ رفع الأب وجهه الذي بهت وشحب.. وقف.. خطا بخطوات وئيدة نحو ابنه.. حمله في حنان.. وقف أمام جثمان زوجته.. والدموع قد غشيت كل وجهه.. نقّل بصره بين جثمان الأم والابن.. عاد ينظر إلى زوجته الراحلة، بينما تقول عيناه بصدق:

- من أجلكِ..سأعتني بالوليد..أحب وأبقى ذكرى..

* * *